مجير أم عامر..

محمد عوض الله العمري

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وكنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت لبانها وربيت فينا فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع لؤمٍ فلا أدب يفيد ولا أديب

ثلاثة أبيات قالتها تلكم المرأة العربية؛ حين تحسّرت على شاتها التي ذهبت ضحية قيمة أخلاقية، أسدتها لمن لم يستحقها.

حين مدت يد العون لجروٍ فقد معيله، وتقطعت به السبل للوصول لأدنى مراحل الاطمئنان والأمن والعيش بكرامة،أخذتها قيم (الفزعة) والنجدة وإغاثة الملهوف، فأكل وشرب واطمأن وأمِن ومن قدّم له يد العون كان مسرورًا وهو يشارك (دخيله) الأكل والشراب والعيش الرغيد، متكفلاً بكافة وسائل الراحة لهذا الـ...

وحين كبر وقوي عوده عاد إلى فطرته وممارسة سلوكه الطبيعي، فانقض على ذات الأثداء التي أرضعته وحنت عليه حنو الحانيات، وعطفت عليه عطف الأمهات فلم يشفع لها كل ما قدمت ولا كل ما به ضحّت، امتدت لها يداه الغادرتان وأنشب أظفاره وغرّز أنيابه، فأوردها الردى، ولم يردعه عار ولا خلق.

ولم يكتف بذلك بل تجاوز ليكلم نفوسًا لم تتوان في رعايته وحفظه، وغلب الطبع على التطبع، وطغى سلوكه الشرير على تجاوز كل مناحي الوفاء.

هذه القصة التي سُطرت في دواوين الأدب والثقافة العربية لم تُذكر إلا لفائدة، ولم تتلى إلا للعبرة، وتساندها قصة أخرى حيث روى الميداني في (مجمع الأمثال) أن قومًا خرجوا للصيد فعرضت لهم ضبع فطاردوها حتى دخلت بيت أعرابي فمنعهم عنها مدعيًا أنها استجارت به فسقاها اللبن والماء وقدم لها الطعام، وعلى حين غرة انقضت على مجيرها فبقرت بطنه وشربت دمه وغادرت وحين عاده ابن عم له وجده مبقورًا فتتبع أثر أم عامر حتى وجدها فقتلها وأنشأ شعرًا صار مضرب مثل ومَنْ يَصنَعُ المعروفَ مَع غَير أهلِهِ ... يُلاقي كَما لاقى مُجيرُ أُمِّ عامِرِ

أعَدَّ لَها لَما استجارَتْ بِبَيتِهِ ... أحاليبَ البانِ اللقاحِ الدوائرِ
وأسمَنَها حتَّى إذا ما تَمَكَّنَتْ ... فَرَتْهُ بأنياب لَها واظافِرِ
فَقُلْ لِذَوي المعروفِ هذا جَزاءُ مَنْ ... يَجودُ بِمَعروفٍ على غَير شاكِرِ

ويمكن لأي قارئ أن يدرك المغزى المراد، ويفهم المقاصد من مثل هذه القصص، فإن لم يعتبروا أصابهم ما أصاب صاحبة الشاة ومغيثة جرو الذئب، ومجير أم عامر!

وقد روي عن ألبرت أينشتاين قوله (الغباء هو فعل نفس الشيء مرتين بنفس الأسلوب ونفس الخطوات وانتظار نتائج مختلفة)

وسواءً صحت نسبة القول لآينشتاين أم لغيره إلا إن المضمون صحيح والمفهوم منطقي، فتكرار خطوات التجربة الفاشلة لا تمكنك من الحصول على نتائج مختلفة.

ولذلك قالت العرب (اتق شر من أحسنت إليه) وإن كانت النظرة الأولى تعطي انطباعًا سلبيًا من حيث عدم التعميم لكن صاحب العقل يدرك الفرق بين التعميم وانتقاء المواقف بشكل دقيق.

تأبى النفوس الكبار أن تُضاد القيم والمبادئ من أجل قصة ذئب عوى حين سطا على أمٍ كفلته بالتبني، أو ضبع خشرم، بل يحزمون أمرهم ويقرنون قولهم بفعلهم فيهبون لنجدة الملهوف ويفزعون لإغاثة المحتاج ضاربين بفعل (الجرو) عرض الحائط ومنتصرين للقيم ومكارم الأخلاق، لا يضيرهم عقوق وجحود النكرات والمنكرين الجميل، واثقين من انتصار الأصل وهوان المتأزمين.

والواقع أن الناس في تعاطيهم مع هذا الأمر ثلاثة أصناف؛ صنف استلهم درس المرأة مع فاجعها الذي أكل شاتها فقرر رفض مد العون بشكل مطلق، يساندهم قصصٌ وحوادث مشابهة كثيرة، وصنف لم يكترثوا بتلك القصص البتة، فقدموا المبادئ والقيم غير مكترثين بالعواقب، والصنف الثالث اهتموا بتقييم الحالة وفق معطيات وموازنات متفرقة.

(ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمًا عليه ويندم) *
زهير بن أبي سلمى